

رابعاً

نصوص مختارة

١ - أغلال وأصفاد فى تراثنا العربى

« ... وعقيدتى أن فى تراثنا العربى إلى جانب عوامل القوة ، عوامل أخرى تعمل فىنا كأشبع ما يستطيع فعله ، كل ما فى الدنيا من أغلال وأصفاد ، وأنه لمن العبث أن يرجو العرب المعاصرون لأنفسهم نهوضاً أو ما يشبه النهوض ، قبل أن يفكّوا عن عقولهم تلك القيود ، لتنتلق نشيطة حرة نحو ما هى ساعية إلى بلوغه ؛ إنه لابناء إلا بعد أن نُزيل الأنقاض ونمهد الأرض ونخفر الأساس القوى المكين .

وسأكتفى من هذه العوامل المعقّوة بثلاثة :

الأول : أن يكون صاحب السطان السياسى هو فى الوقت نفسه ، وبسبب سلطانه السياسى ، صاحب الرأى ، لأن يكون صاحب رأى (بغير أداة التعريف) ، بحيث لا يمنع رأيه هذا ، أن يكون لغيره من الناس آراؤهم .

الثانى : أن يكون للسلف كل هذا الضغط الفكرى علينا ، فنميل إلى الدوران فيما قالوه وما أعادوه ألف ألف مرة - لا أقول ، إنهم أعادوه بصور مختلفة ، بل أعادوه بصورة واحدة ، تتكرر فى مؤلفات كثيرة ، فكلما مات مؤلف ، لبس ثوبه مؤلف آخر ، وأطلق على مؤلفه

اسماً جديداً ، فظنَّ أن الطعام الواحد ، يصبح أطعمة كثيرة ، إذا تعددت له الأسماء .

الثالث : الإيمان بقدرة الإنسان (لا كل إنسان ، بل المقربون منهم) على تعطيل قوانين الطبيعة عن العمل ، كلما شاءوا ، على غرار ما يستطيعه القادرون النافذون - على صعيد الدولة - أن يعطلوا قوانين الدولة فى أى وقت أرادت لهم أهواؤهم أن يعطلوها »
(تجديد الفكر العربى ٢٦ - ٢٧ ،

٢ - عصر التحول

عصر التحول هو عصرنا فالسفينه تتحرك به بين شطّين اثنين ، ولو غفلنا عن هذه الحقيقة الأولى ، زاغَتْ أبصارنا إلى ماضٍ تركناه ، أو شَطَّحَ بنا الخيال إلى مستقبل مأمول ، لا نملك بَعْدُ وسائله .

فإذا كانت الأولى ، التَوَتَّ أعناقنا ، وتحولنا إلى أصنام من الملح ، كالذى أَلَمَ بقوم « لوط » ؛ إذ لَوَّوا أعناقهم ، لينظروا إلى الوراء أسفاً وحسرةً ؛ وإن كانت الثانية أصابنا كُساد ، كالذى يصيب الطفل ، حين يرغبه أبواه على المشى ، قبل أن تستقيم ساقاه وتقوياً .

يصوِّر « كافكا » صورة هادية ، حين تصوِّر إنساناً أخذه النعاس واستيقظ ليجد نفسه خنفساً ضحماً . لقد تحول فكان لهذا التحول مشكلاته العصية العسيرة ، فكيف يسيرُ وعلى أى نهج يسلك هذا الإنسان الخنفس ، بحيث يرضى عن سيره وسلوكه ؟ أيجعل معياره حياة الخنفس أم حياة الإنسان ؟ إنه لو فعل هذا أو ذاك تجاهل حالته الراهنة ، فلا هو بالإنسان حتى يصطنع قواعد الأناسى ولا هو

بالخنفس ، حتى يحيا كما تحيا الخنافس ، إنه إنسان خنفس ، وإذن فلا بد من نظرة جديدة ومعايير جديدة ، وإلا أخذته الحيرة واستبدت به الفوضى ، وضلَّه اللبس والغموض ، واضطرب بين مجموعتين من المثل ، فلا يدري بأيهما يأخذ ، والصواب هو ألا يأخذ بأى منهما ، وأن يخلق مجموعة من المثل ثلاثة تصلح لهذا الكائن الجديد .

لا جناح على الإنسان أن تستقر حياته على قواعد ثابتة ، إذا مارسنا فلُكهُ . على شط الوصول ، أما وهو ما يزال يسبح فى اللجة يلاطم الموج ليصل ، أعنى أما وهو فى مرحلة التحول ، فصاحبُ القواعد الجامدة الثابتة هو المحكوم عليه بالتهلكة والضياع .

فالقاعدة الأولى فى مرحلة التحول ، هى ألا تكون هناك قاعدة ، تسد علينا طريق المغامرة والمبادرة والخلق .

إنَّ الجديد لم يتحدد بَعْد ، حتى يجوز لنا أن نُقَعِدَ له القواعد ونقنن له القوانين ، الجديد هو فى طريق الصنع ، نحن الذين نصنعه فى مرحلة التحول هذه ، نبتكر لكل موقف ما يلائمه ، ونلاقى كل مشكلة بما يناسبها ، إننا إذ نشكل المواقف تَشَكَّلُ فى صورتنا الجديدة ، فلا بد - إذن - أن يكون من صفات هذه المرحلة ، تغيُّر كل عام ، كل شهر ، كل يوم . ليس العيب هو فى هذه المراجعة الدائبة لنظم الأسرة ، والحكومة والتعليم ، والاقتصاد ، وإنما العيب هو فى الوقوف عندما كان قائماً ، كأنما هو الأزل الذى لا يبيد ! إن عصر التحول هو عصرنا ولا تحوّل لنا إذا أقبلنا بالسفائن من شط الكلام أو من معرفة قوامها الكلام إلى شط آخر ، أو معرفة قوامها الآلة التى تصنع ،

وهذه الآلة ليست كتلة من الحديد إنما هي علم مُجسّم ، إنها هي الثقافة وهي الحضارة ..

د تجديد الفكر العربى ٢٢٤ - ٢٤١ ،

٣ - الفكر والحوار

إن الفكر يتطور بالحوار ، بينما لانجد فى ساحة الفكر العربى ، لامشاركة ولاحوار ، وإنه ليس بالشىء المستبعد فى حياتنا الفكرية أن تنبت فكرة هناك فلا نسمع بها هنا فضلاً عن أن نجد من يناقشها ليحييها ، واقتل ما يقتل التفكير مقابلته بالصمت ، لأن المعارضة والموافقة كليهما زاد للنماء ، إن فى وطننا العربى أفكاراً مبعثرة ، ولأمر يحتاج إلى تحليل وتوضيح ، لم يفلح فى صهرها ، كل ما نقيمه من مؤتمرات ، ومهرجانات ولحات نقدية نتقاذفها حيناً بعد حين ، وإننى لأكاد أعجز عن الجواب إذا سألتنى سائل : ما أهم القضايا الفكرية التى تشغل رجال الثقافة العربية ؟ فلكل منهم قضية ، ثم ، لالقاء !!

سل : ماهو التيار الفلسفى الأغلب بين المثقفين العرب ؟ ولن تجد الجواب ، فكل صوت مسموع فى دنيا الفلسفة فى أوروبا وأمريكا له بيننا صده ، ففيينا المثاليون والتجريبيون والواقعيون ، والوجوديون ، والبراجماتيون ، والماديون الجدليون ، والشخصانيون ، فإذا سألتنى سائل آخر : ماهو الاتجاه الأغلب بين المثقفين العرب فى ميدان النقد الأدبى ؟ أقول : لأجد الجواب ، فكل مذهب نقدى يتردد فى أوروبا وأمريكا ، له عندنا مناصرون ، فهناك من يقيمون النقد على أساس بحثهم فى القطعة الأدبية ، عن نفسية الكاتب ، ومن يقيمونه على أساس

بخطهم ، عن الظروف الاجتماعية ، كما انعكست في الثمرة الأدبية المنقودة ، ومن يقيمونه على أساس بحثهم عن الهدف المذهبي = (الأيديولوجيا) ، هل وجد تعبيراً عنه أم لم يجد ؟ وهكذا وهكذا . وهنالك من يأخذون عن ت . س . إليون ، ومن يأخذون عن أ . أ . ريتشاردز ، ومن يأخذون عن سارتر ، ومن يأخذون عن (لست أدري) ممن في روسيا أو غيرها ، عندنا وعندنا من البضاعة ألف صنف وصنف !! أتقول إنها فاعلية وحيوية ، هذا التوثب لالتقاط الشاردة والواردة ؟ قل ماشئت ، « لكننى أقول إنها كالميازيب ، تصب ماءها ، دون أن تجد المجرى الأصيل الذى يوحد الماء ، فى تيار ؛ فليس فى عقولنا الإطار القومى المعدّ لتشكيل المادة الوافدة ، فى شكل يحمل الطابع العربى ، برغم اختلاف الأفراد ، وقُلْ هذا نفسه ، فى كل شيء ، قلّه فى الفنون على اختلافها - كما تقوله عن مناخنا الفكرى ، سواء بسواء » .

وإذن ما الحل ؟ وما العلاج ؟ وما العمل ؟ (وأقول .. وأوّل ما أوكدّه ، وأحرص عليه أشد الحرص هو ألا يقوم فينا من يُملئ علينا ما نصنعه وما لا نصنعه ، وإنما نريد من يهيمُّ لنا المناخ الملائم ، الذى يدعونا من تلقاء نفسه ، إلى ضرب من التجمع العقلى ، حتى وإن لم يجمعنا مكان واحد ، نريد للفكرة تصدر فى هذا الطرف ، فتجد الأذان لسمعها فى ذلك الطرف ، القطرات الفكرية موجودة ، تظهر أنا بعد آن ، ونريد من يجعل منها نهراً فياضاً ، اللّمعات الفردى متناثرة ، ونريد من يصنع منها سراجاً وهاجاً »

د نافذة على فلسفة العصر ٢١٨ - ٢٢١ ،

٤ - الشعر والأخلاق

» ... يقول لنا الشاعر بشعره : هذه هي الحياة ، وهذا هو نبضها كما أحسه ، وإن لم يستطع أن يحسه مع سائر البشر أجمعين ، فماذا يقول الأخلاقي ؟ إنه يقدم لنا المبادئ المطلقة الثابتة ليقول لنا : هذا هو ما ينبغي أن تكون عليه الحياة البشرية ، والفرق بين ما هو كائن في تصور الشاعر ، وما ينبغي أن يكون ، هو الفرق بين الشعر والأخلاق .

الأخلاق تأمر ، والشعر يفسّر ، بماذا يأمرنا شعر المتنبي أو شعر أبي العلاء ، مع أنهما الشاعران اللذان وصفهما القدماء بأنهما حكيمان ، وبين الحكمة ومبادئ الأخلاق وشيعة قريي ؛ بماذا يأمرنا شعرهما ؟ إنه لا يأمرنا بشيء ، ولكنه يزيدنا فهما لطباع البشر . الشعر كاشفٌ عما استتر من لواعج النفس وخلجاتها ، لا يفرق في ذلك بين خير وشر ، إنه يكشف الغطاء عما لاتراه العين العابرة من طبائع الناس ، وإنه لمن العجب ، أن هذا الإنسان في وسعه أن يعلو إلى اسمى مدار الفضيلة ، كما في وسعه كذلك ، أن يسفل إلى أحط مهاوى الرذيلة ، ومهمة الشعر أن يغوص إلى الأعماق الخبيثة ، ليرى الرواسب على القاع فيخرجها من حالة اللاشعور المبهم الغامض ، إلى حالة التصوير الواضح ، ليرى الإنسان نفسه كما هي .

إن الشاعر إذ يَصَوِّرُ لك فردًا معينًا ، أو حالة شعرية خاصة ، من حب أو كراهية أو غضب أو رضى ، فهو يقدم لك العام في الخاص ، وهذا هو موضع الإعجاز في جيد الشعر ، إذ هو يقدم

لك حالة مفردة ، ولكنها فى الوقت نفسه تصلح أن تكون نموذجاً
تفسّر به سائر الحالات .

الأخلاق تنهانا عن الرذيلة ، وتحضّنا على الفضيلة .. أما الشعر فيفتح
أعيننا على منابع الرذيلة والفضيلة معاً ، فإذا كان عملنا بهذه الينابيع ،
يقوم سلوكنا من تلقاء نفسه ، بلا وعظٍ صريحٍ/ كان ذلك هو الجانب
الأخلاقي من الشعر .

الشعر محايد ، يصور لك العبقريّ والأبله ، على حدّ سواء ، فهو
كالشمس تشرق على الكائنات بغير تمييز وإنه لخطأ شائع بيننا ، أن
يقال عن الشعر إنه تعبير عن نفس صاحبه ، لكنّ هذا التعريف الضيق ،
قد ينطبق على قلةٍ قليلة من الشعر الغنائيّ ، أما الشعر من الضروب
الأخرى ، فلا شأن له بنفس صاحبه ، لأنّ نفس الشاعر من حيث
هو فرد واحد ، ليس لها كل هذه الخطورة فى حياة الناس ؛ وأقرب
إلى الصواب أن نقول : إن الشاعر بعبقرية الفن فى فطرته ، يعطينا
من نفسه الحالة الخاصة ؛ فإذا هى تصوير للإنسان من حيث هو نوع
بشرى متجانس الأفراد .

وإذا كان الشاعر يعبر عن نفسه هو ، فكيف أمكن للشاعر المسرحيّ
مثلاً ، أن يسوق فى مسرحية واحدة ، حشداً من الأنفس المتباينة ،
فأى هذه الأنفس تكون نفس الشاعر ؟ فى أى الأشخاص الذين صورهم
شكسبير ، يعبر الشاعر عن ذاته ؟ أهو « ترويلس » العاطفى الساذج
فى مسرحية « ترويلس وكريسيدا » ، أم هو هكتور الفارس النبيل ؟

أهو « يوليسيز » ذو الفكر الناصع ، أم هو « كاسندرا » ، التي ترى العالم قاسيا لا رحمة فيه ؟

إن الشاعر يقدم هؤلاء ، وغير هؤلاء ، لا يقول عن أحد منهم : إنه أخطأ أو أصاب ، وذلك لأنه لم يكتب ليدعو إلى شيء بعينه ، وإنما كتب ليكون شاعرا .

هُنَّ أخوات ثلاث : العلوم والفنون ودنيا السلوك ، العلوم قانونها الحق ، والفنون قانونها الجمال ، ودنيا السلوك قانونها الخير ، وعلى رءوسهنّ ، تقوم الحضارة ، كما يقوم المثلث على أضلعه الثلاثة ، تلتقى الأضلاع عند الرءوس ، لكنّ واحدا منها لا يُلغى واحداً .

« مع الشعراء .. ١٩٦ - ١٩٧ »

أهم المصادر والمراجع

- ١ - زكى نجيب محمود : حصاد السنين ١٩٩٢م
- ٢ - زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربى ١٩٧٦م
- ٣ - زكى نجيب محمود : قصة عقل ١٩٦٥م
- ٤ - زكى نجيب محمود : قشور ولباب ١٩٨٠م
- ٥ - زكى نجيب محمود : مع الشعراء ١٩٨٨م
- ٦ - زكى نجيب محمود : نافذة على فلسفة العصر ١٩٩٠م
- ٧ - زكى نجيب محمود : بيرتراند راسل ١٩٦٠م
- ٨ - عباس محمود العقاد : مطالعات ١٩٤٠م
- ٩ - عباس محمود العقاد : مراجعات ١٩٤٥م
- ١٠ - عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة ١٩٤٠م
- ١١ - د . مصطفى عبد الغنى - زكى نجيب محمود « من سلسلة نقاد الأدب » ١٩٩٢م الهيئة العامة للكتاب .